مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (24) العدد (17)2002
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Human Sciences Series Vol (24) No (17) 2002

نقد الشعراء لشعر عمر بن أبي ربيعة

الدكتور حكمت عيسى*
مظهر مكية **

(قبل للنشر في 2002/7/22)

□ الملخّص □

يتناول هذا البحث جانباً مهمّاً من النقد الذي دار حول شعر شاعرٍ من شعراء العصر الأموي هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي .

هذا الشاعر الذي دارت حول شعره الغزلي خاصّة حركة نقديّة تشابه إلى حدٍّ كبير تلك الحركة النقدية التي دارت حول شعراء النقائض في العراق .

لقد شهد الحجاز تلك الحركة ، وشارك الناس بمختلف طبقاتهم في نقد هذا الشعر بين مستحسن ، ومستهجن .

ولأنّ الشعر ازدهر في البيئات المعروفة في العصر الأمويّ كالشام ، والحجاز ، والعراق ، فإن النقد كَثُرَ في هذه البيئات ، وإن اختلف بين واحدة وأخرى .

وإذا كان النقد الجاهليّ فطريّاً كما نعرف ، كالذي نجده عند امرئ القيس ، عندما تنازع الشعر مع علقمة بن عَبَدة الذي لقب فيما بعد بعلقمة الفحل ؛ لأنّه تزوّج امرأة امرئ القيس بعدما طلّقها نتيجة حكمه لعلقمة ، وكالذي نجده عند المتلمس خال طرفة من استنواقه للجمل فإن الأمر اختلف في العصر الأموي ، وخاصّة في الحجاز ، فقد أسهم عمر بشعره الغزليّ الذي اصطلح على تسميته بالشعر الصريح في تطوّر الحركة النقديّة .

وكانت لأحكام الشعراء الغزليين منهم بشكل خاص كجميل ونصيب وكثيّر عزّة ، وجرير والفرزدق أثرها في تطوّر هذا النقد على ما سنرى في هذا البحث .

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
** طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (24) العدد (17)2002
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Human Sciences Series Vol (24) No (17) 2002

Poet Criticism to Omar bin Abi Rabiaa's poetry

Dr. HICKMAT I◌◌SSAH *
MAZHAR MACKEYEH **

(Accepted 22/7/2002)

□ ABSTRACT □

This research studied an important criticism side about « Omiad poem ; Omar bin Abi Rabiaa Al mackzoomi » .

There was a criticism movement about his erotic poetry, this movement likes the criticism movement which turns around the contradictions poetic in Iraq .

In this movement where many critics shared there are fuser and an assistant .

The criticism in ignorance age was a simply criticism which we found it at « Omroo Al-Kais Alkama Al-Fahel , Al-Motalammis , and Tarafa ibn Al-Abid » .

But this criticism developed in Omiad age specially in « Al Hejaz area » where « Omar » shared with his a erotic poetry which called an impudent poetry which shared in the development of the criticism movement .

Ther was an important effect of a erotic poets like « Jameel , Naseeb , Kothear Azza , Jareer and Al Farazdak on the development of criticism movement which we shall see in this research .

* **Associate Professor at Arabic Department, Faculty of Arts and Human Tishren University, Lattakia, Syria.**
** **Ph.D. student at Arabic Department Faculty of Arts and Human, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

نـقد الشعراء :

عندما نتحدث عن الشعراء ، فإنّ الأمر لابدّ مختلف هنا ؛ ذلك لأنّ هذه الفئة من نَقَدَة الشعر هم ممن عملوا بالشعر فعلاً .

وكان عمر بن أبي ربيعة بمذهبه الغزليّ الجديد ، وارتقاء هذا الفنّ على يديه هدفاً لهذه الفئة من الناس ، وإذا كانت الحركة النقديّة قد بلغت أوجها في العراق ، ودارت حول شعراء النقائض الثلاثة جرير ، والفرزدق ، والأخطل خاصّة ، وشعراء النّقائض عامّة ، فإنّها كانت متميّزة في الحجاز حول هذا المذهب الجديد وحول عمر بن أبي ربيعة .

لقد أسهم هذا الشاعر فعلاً في ارتقاء النقد العربيّ ، والسموّ به ، ووضع اللّبنات الأولى له ، فنحن وإن لم نلحظ جديداً في هذا النّقد ، إلا أن تلك الأحكام على شعر عمر كانت نواة النقد الجديد الذي صبغ العصر العبّاسيّ .

والحقّ أنّ الشعراء الذين شاركوا فيما دار حول شعر عمر ،كانوا من أشهر شعراء العصر الأمويّ ، وكان له الأثر ، على ما سنرى ، في شعراء العصر العبّاسيّ ، على أنّ هؤلاء كما قلت على شهرتهم ، لم يحملوا من النّقد الجديد إلا القليل .

وكان الشّعراء حريصين على حضور المجالس الأدبيّة ، والنقديّة ، وكانوا يتحمّلون مشاقّ السفر ليسمعوا من هذا الشعر الجديد شيئاً ، فيدلوا بدلوهم فيه ، بين مستحسنٍ ومستهجن .

وكان الفرزدق وجرير وجميل وكثيّر ونصيب من أكثر الشعراء خوضاً في شعر عمر ، وإطلاق الأحكام المختلفة عليه ، وهم جميعاً من الشعراء المعاصرين له ، في حين أننا سنرى أبا تمام الشاعر العبّاسيّ يتميّز من هؤلاء عندما وقف عند شعر عمر ناقداً وأبو تمام كما نعرف من الشعراء المتأخّرين .

أما الفرزدق فهو مع انشغاله بجديد العصر الأمويّ ، وأعني النّقائض ، فقد كانت له مواقف متعدّدة من شعر عمر ، ففي الأغاني : « أخبرني عليّ بن صالح عن المدائني قال : سمع الفرزدق عمر بن أبي ربيعة ينشد قوله :

جَرَى ناصحٌ بالودِّ بيني وبينَها فقرّبني يَوْم الحِصَاب إلى قَتْلي

ولمّا بلغ قوله :

فَقُمْنَ وقد أَفْهَمْنَ ذا اللّبّ أَنَّما أتَيْنَ الذي يأتيْنَ من ذَاكَ من أَجْلي

صاح الفرزدق : هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته ، وبكت على الدّيار1 » .

والحقيقة أنّ الفرزدق كان واضحاً في هذا الحكم ، فهو يقدّم عمر على شعراء الغزل جميعهم ، بل يذهب مذهباً أبعد من هذا فهو يقرر أنّ المحاولات في الغزل قبل عمر ، إنّما هي محاولات غير جادّة ، وهو حكم جدّ خطير ، ذلك لأن الفرزدق بهذا الحكم يجور على بعض شعراء الجاهلية ، كامرئ القيس ، وقد رأينا أنّ عمر كان من أشد المتأثّرين بهذا الشاعر الجاهليّ وفي الغزل بالذّات .

ولكن ، إذا وقفنا عند هذه القصيدة التي أطلق الفرزدق حكمه فيها ، فإنّنا نرى أنّ الفرزدق كان صادقاً في هذا الحكم فخصائص فنّ عمر الشعريّ بدت واضحة تماماً في هذه الأبيات ، بل في القصيدة عامّة ، هذه الخصائص التي ميّزت شعر عمر من الشعراء السّابقين .

وإذا عدنا مرةً أخرى إلى القصيدة ذاتها ، فإنّنا نرى أنّ الفرزدق محقٌّ في تقديم عمر ، فالقصيدة مثار الحكم هي من أجمل ما قال عمر ، خاصّة وأنّها في ليلة وصال أعانه عليها سِرْبٌ من الحسناوات وفيها يقول(2) :

---

(1) الأغاني ج 71/1 .

(2) ديوان عمر : ج161/2 .

فلمّا تواقفنا عَرَفْتُ الّذي بها ... كَمِثْل الذي بي حَذْوَكَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ
فعاجَتْ بأمثَالِ الظّباءِ نواعمٍ ... إلى مَوْقِفٍ بين الحَجُون إلى النَّخْلِ
فقالَتْ لأترابٍ لها شَبَه الدُّمَى ... أَطَلْنَ التَّمني والوقوفَ على شُغْلِي
وقالت لَهُنّ : ارجعن شيئاً لعلَّنا ... نُعَاتب هذا أو يراجع في وَصْلِ
فقلنَ لها : هذا عشاءٌ وأهلُنا ... قريبٌ ، ألمّا تسأمي رُكْبَةَ البغل ؟

والقصيدة عموماً من اثنين وعشرين بيتاً ، يصف فيها الشاعر مغامراته العاطفيّة ، وهي قامت ، أكثر ماقامت ، على أبرز مايختص به شعر عمر ، وهو الحوار الذي أضفى على شعره هذه الحركة التي استهوت الناس ، وكانت ميّزة له ، وهذا مانراه في الأبيات المتقدّمة ، وهذا ماجعل الفرزدق يحكم لعمر بأنّه أشعر الناس لا بل إنّه كان ضالّة الشعراء إلى الغزل ، كيف لا وهو الذي يقول في نهاية القصيدة :

أهيمُ بها في كُلِّ مَمْسىً ومُصْبَحٍ ... وأُكْثِرُ دَعْواها إذا خَدِرَتْ رجلي

وماكان الفرزدق يخفى إعجابه بشعر عمر ، ولكنّه في بعض المواقف الأخرى كان أكثر وضوحاً في إطلاق هذه الأحكام النّقدية ، لا بل إنه كان يطلب لقاء عمر ليسمع منه « أخبرني ابن المرزباني عن الهيثم بن عديّ قال : قَدُمَ الفرزدق المدينة وبها رجلان يقال لأحدهما صُوَيمَ والآخر ابن أسماء وُصفا له فقصدهما ، وكان عندهما قيان فسلّم عليهما وقال لهما : من أنتما ؟ فقال أحدهما : أنا فرعون وقال الآخر أنا هامان قال : فأين منزلكما في النّار حتى أقصدكما ؟ فقالا : نحن جيران الفرزدق الشاعر فضحك ونزل فسلّم عليهما وسلّما عليه وتعاشروا مدة ، ثم سألهما أن يجمعا بينه وبين عمر بن أبي ربيعة ففعلا ، واجتمعا تحادثا وتناشدا إلى أن أنشد عمر قصيدته التي يقول فيها :

فلمّا التقَينا واطمأنَّتْ بنا النّوى ... وغُيِّبَ عنّا من نخاف ونُشْفِقُ
فقُمْنَ لكي يُخْلينا فترقْرَقَتْ ... مَدَامعُ عَيْنيها وظَلَّتْ تدفّقُ
وقالَت : أما تَرْحَمْنَني لاتَدَعْنَني ... لدى غزلٍ جمٍّ الصَّبابة يخرُقُ
فقُلْنَ اسكُتي عنا فلسْتِ مطاعةً ... وخِلُّكِ منا فاعلمي بكِ أَرْفقُ

فصاح الفرزدق : أنت والله يا أبا الخطّاب أغزل الناس ! لا يُحسنُ والله الشعراء أن يقولوا مثل هذا النّسيب ولا أن يرقوا مثل هذه الرّقيّة ، وودّعه وانصرف »(3) .
والأبيات السابقة هي في ليلة وصال أُعين عليها شاعرنا ، والقصيدة من عشرة أبيات يقول عمر في آخرها :

فقالتْ: فلا تَبْرَحَنْ ذا السِّتْر إنّني ... أخافُ وربّ النّاس منهُ وأخْرَقُ

والفرزدق في هذا الحكم لا يخرج كثيراً عن أحكام النّقاد السّابقين ، فهو يجعل من عمر أغزل النّاس بل هو أفضلهم في هذا الباب ، وهذا الحكم لا يختلف كثيراً عن أحكام نقّاد العصرين الجاهليّ والإسلاميّ ، حكم غير معلّل يقوم فقط على الإعجاب بأبيات يكون صاحبها أغزل النّاس ، أو أهجاهم ، أو أرثاهم .

(3) الأغاني : ج149/1 ، والأبيات في ديوانه : ج2/ 82 .

وينبغي أن نشير ، قبل أن نختم الحديث عن الفرزدق ، إلى أنّ مذهب الرجلين في الغزل واحد ، وربّما كان تفضيل الفرزدق لعمر بن أبي ربيعة سببه هذا الأمر ، فغزل الفرزدق كما هو معروف غزل فاضح ، وهو ، على كل حال ، لم يكن مشهوراً بغزله هذا شهرة خصمه جرير ، وفي غزله الماجن هذا يشبه إلى حدٍّ ما غزل عمر .
يقول الفرزدق وقد عاتبه أهله في الزّنا(4) :

أمّا الزِّناء فإنّي لَسْتُ تَاركَهُ والمالُ بيني وبَيْنَ المرء نِصْفَانِ

وهو يقول في موضع آخر يصف مغامراته العاطفية(5) :

فلو أنّ امرأ القيس بن حُجْرٍ ودَارَتَهُ معي لَرَأى غَرَامِي

حتّى انتهى إلى قوله :

له مُنْهُنّ إذْ يَبْكِين أن لا يَبِتْنَ بليلةٍ هي نصفُ عامِ
رآني الغانياتُ فَقُلْنَ هذا أبونا جاء من تحتِ السِّلامِ
فإن يَضْحكْنَ أو يَسْخَرْنَ مني فإنّي كُنْتُ مِرْقَاصَ الحذامِ

ويبدو أنّ شعر عمر كان يستهوي كثيراً أمثال الفرزدق ، ممّن يعجبهم هذا الغزل الجديد « سمع الفرزدق شيئاً من نسيب عمر فقال : هذا الذّي كانت الشّعراء تطلبه فأخطأته ، وبكت الدِّيار ، ووقع هذا عليه ، قال وكان بالكوفة رجلٌ من الفقهاء ، تجتمع إليه النّاس فيتذاكرون العلم ، فَذُكر شعر عمر بن أبي ربيعة فهجّنه فقالوا له : بمن ترضى ؟ ومرّ بهم حمّاد الرّاوية فقال : قد رضيت بهذا فقالوا له : ماتقول فيمن يزعم أنّ عمر بن أبي ربيعة لم يُحسن شيئاً ؟ فقال : أين هذا ؟ اذهبوا بنا إليه ، قالوا : نصنع به ماذا ؟ قال : ننزُو على أمّه لعلّها تأتي بمن هو أمثَل من عمر »(6) .
وفي هذا دليل على ما تقدّم من تفضيل الناس لهذا الشعر الجديد ، أو لنقل لهذا المذهب في الغزل ، إلا الفقهاء ورجال الدّين الذين رأوا في هذا الشعر لهواً ومفسدة ، والخبر على كل حال يدلّ على تعصّب حماد لشعر عمر الغزلي .
لقد كان الفرزدق صريحاً في حكمه على عمر ، وخصّ هذه الأحكام جميعها ببراعة عمر ابن أبي ربيعة في فنّ الغزل ، لكنْ هل كان الأخير كذلك في رأي الفرزدق في بقيّة أغراض الشّعر ، بالطبع لا .
يروي صاحب الموشّح : « قال : حدّثني عبيد الله بن أبي إسحاق عن ابن سلاّم قال : أتى عمر بن أبي ربيعة الفرزدق فأنشده من شعره ، وقال : كيف ترى شعري ؟ قال : أرى شعراً حجازيّاً إن أنجد اقشعَرَّ فقال له : حسدتني ، فقال : يا ابن أخي علامَ أحسدك ؟ أنا والله أعظم منك فخراً ، وأحسن منك شعراً ، وأعلى منك ذكراً ثم قال :

---

(4) ديوان الفرزدق : 874 .
(5) ديوان الفرزدق : 836 .
(6) الأغاني : ج75/1 .

أصبحت يا بن أبي ربيعة حقَّةً سَمِعتْ هدير مُسدَّمٍ مقرومِ
فلقد خزمتُك والخِزام مذلَّةٌ ولذلّها دُعيت بني مخزوم »(7)

وهذا الحكم النّقديّ إنّما يتناول براعة الشاعر في فنون الشعر ، صحيح أنّ عمر كان شاعر الحجاز في الغزل ، لا بل هو شاعر العصر الأمويّ ، لكنّه لم يكن كذلك في الأغراض الأخرى ، وهذا ماجعل الفرزدق يغضب ويثور ، حتّى بلغ به الأمر هجاءه عمر بالبيتين السّابقين ، وليس بين أيدينا مايدلّ على أنّ ابن أبي ربيعة قد ردّ على الفرزدق بشيء ، وماكان يجب أن يفعل فعمر شاعر غزل ، ولم يكن في يوم من الأيّام شاعر هجاء ، وإن وجدت في ديوانه بعض المقطوعات القصيرة جدّاً في الهجاء أو الرّثاء أو الفخر فهي على سبيل التقليد ، ولا تختلف كثيراً عن قصائد الجاهليين بمجموع خصائصها .

عموماً كان نقد الفرزدق لشعر عمر في الأخبار السّابقة يتركّز حول غرض الغزل ، وإجادة عمر لهذا الفنّ الشعريّ وقد أُعجب شاعر النّقائض بهذا الشّعر ، كما أُعجب بعض الشعراء من عصره ، وخاصّة خصمه جريراً الذي كان شاعراً غزِلاً ، وإن لم يكن الغزل غرضاً أساسياً في شعره .

وكان عمر عند جرير شاعراً مقدّماً في الغزل ، ولكنّ آراءه كانت متفاوتة ، وكان حكمه لا يختلف عن حكم الفرزدق ، وتتردّد عبارة الفرزدق نفسها في أحد أحكام جرير على شاعرنا وغزله : « أخبرني عمّي قال : حدّثنا الكرانيُّ قال : حدّثنا العمريّ عن لقيط قال : أنشد جرير قول عمر بن أبي ربيعة :

سائلا الرَّبْعَ بالبُلَيِّ وقولا هجْتَ شوقاً لي الغداة طويلا
أين حيٌّ حَلَّوكَ إذ أنت محفو فٌ بهم آهِلٌ أراك جميلا
قال ساروا فأمعنوا واستقلّوا وبَرغْمي لو استطعْتُ سبيلا
سَئِمونا وما سَئِمنا مقاماً وأحبُّوا دَمَاثةً وسهولا

فقال جرير : إنّ هذا الذي كنّا ندور عليه ، فأخطأناه وأصابه هذا القرشيّ »(8) .

وواضح أنّ حكم جرير على شعر عمر كما ألمحت قريب جداً من حكم الفرزدق ، فالمحاولات سابقاً أخطأت الطريق ، وفعل عمر ما لم يفعله الشعراء من قبله ، ولكن نشير هنا إلى أنّ حكم جرير على هذه الأبيات لعمر ليس دقيقاً ، فالأبيات السابقة أو أبيات عمر كاملة في الدّيوان هي في الوقوف على الأطلال ، ففيها يستنطق الطّلَل ، وفي آخرها يتشوّق إلى هند ، وهي مقطوعة من سبعة أبيات فقط ، فكيف يبني جرير حكمه على مثل هذه الأبيات التي لم تكن إلا تقليداً لأشعار السابقين ، وخاصة الجاهليّين ؟ وفي تتمة المقطوعة كما أشرت لاشيء جديد في الأبيات يمكن أن يكون مثار جدل :

ذاك مَغْنىً من آلِ هِنْدٍ وهندٌ قَمَرَتْهُ فؤادَه المَتْبولا
إذ تبدّتْ لنا فأبْدَتْ أثيثاً حالكاً لونُهُ وجِيداً أسيلا
وشتيتاً كالأُقْحُوانِ عِذَاباً لم يغادِرْ به الزَّمانُ قُلولا

---

(7) الموشّح : 323 .

(8) الأغاني : ج106/1 ، والأبيات في ديوانه : ج145/2 .

ومع هذا فقد كان جرير أكثر وضوحاً في حكم آخر على شعر عمر ، بل كان حكماً يختلف عن الحكم السّابق ، حكماً أكثر دقّة ، والخبر التالي يدلّنا على هذا « قال إسحاق : لقيت جريراً فقلت له : يا أبا حَزْرَة إنّ شعرك رُفع إلى المدينة وأنا أُحبُّ أن تسمعني منه شيئاً فقال : إنّكم يا أهل المدينة يعجبكم النّسيب وإن أنسب الناس المخزوميّ »(9) .

وجرير يقصد بالمخزومي هنا عمر بن أبي ربيعة ، وينتبه جرير في هذا الحكم إلى أن النّسيب والغزل طبعا أهل المدينة بطابعهما ، وكأنه بهذا الحكم يقدّم عمر وأضرابه من شعراء الغزل على الشعراء جميعهم في باب النّسيب .

ويبقى حكمه هنا حكماً غير معلّل ، شأنه في هذا شأن الفرزدق .

وكانت لرائيّة عمر مكانتها عند جرير ، وكان غزل عمر مقدّماً عنده والحقّ أن الرّائيّة هي من أجمل قصائده الغزليّة ، وتأثّر عمر فيها بشاعر الجاهليّة امرئ القيس واضح « أخبرني عليّ بن أبي منصور قال : أخبرني يحيى بن عليّ قال : حدّثني محمّد بن سعد الكُراني ، عن ابن عائشة عن أبيه قال : كان جرير إذا أُنشد شعر عمر بن أبي ربيعة قال : تهامِيٌّ إذا أنجد وجد البرد حتّى سمع قوله :

رَأَتْ رجلاً أمّا إذا الشّمس عَارَضَتْ فيَضْحَى وأمّا بالعشيِّ فيخْصَرُ

وذكر منها أبياتاً فقال جرير : مازال يهذي حتّى قال شعراً »(10) .

ويبدو أنّ جريراً لم يقدّم عمر في هذا الباب إلا بقصيدته تلك التي أشرنا إليها ، وهي حقّاً من القصائد الجميلة في شعر عمر .

وينبغي الإشارة ، قبل أن نختم الحديث عن جرير وأحكامه على شعر عمر ، إلى أن جريراً نفسه كان مقدّماً في الغزل على أقرانه من شعراء العراق ، وإذا كان الفرزدق قد أعجب بعمر لمجونه بدليل الأبيات التي استشهد بها ، فإنّ جريراً ما كان ليفعل ذلك ، بل قدّم عمر لأبيات لم يخرج فيها الأخير عن المألوف في الغزل ، مما يدلّنا على تعفّف جرير في غزله ، بخلاف قرينه الفرزدق وخاصّة في النّسيب ، وأغلب قصائده ، حتّى الهجائيّة منها ، تبدأ بالنّسيب ، فهو عندما يهجو الأخطل يقول في مقدّمة هذه القصيدة(11) :

أَجَدَّ اليَوْمَ جِيرَتُكَ ارتحالا ولا تهوى بذي العُشُر الزِّيالا
قفا عوجا على دِمَنٍ بِرَهْبَى فحيُّوا رسْمَهُنَّ وإن أحالا
وشُبِّهْتُ الحُدُوج غداةَ قوٍّ سفين الهند رَوَّحَ من أوالا

لا بل إنّه ينسى هجاء الأخطل ، ويطيل في هذه المقدّمة الجميلة .

وجميل بن معمر العذريّ ، الشّاعر المعاصر لعمر أدلى بدلوه في الحكم على شعر عمر ، وقد اختلف النّاس في الحجاز في عصرهما في أيّهما أشعر ، كما اختلف أهل العراق في جرير والفرزدق ، ولكنّ الأخبار التي أُثِرَت عن جميل تقرّ بشاعرية عمر في باب الغزل ، فقد روي في الأغاني « أخبرني الحرميّ قال : حدّثنا القاسم بن أبي الزّناد قال : خرج عمر بن أبي ربيعة يريد الشام ، فلمّا كان بالجُنَاب لقيه جميل ، فقال له عمر أنشدني ، فأنشده :

خليليَّ فيما عِشْتُما هَلْ رأيتُما قتيلاً بَكَى من حبِّ قاتِلِهِ قَبْلي

ثم قال جميل : أنشدني يا أبا الخطّاب فأنشده :

---

(9) الأغاني : ج76/1 .

(10) الموشّح : 318 ، والقصيدة في ديوانه : ج242/1 .

(11) ديوان جرير : ج412/1 .

ألم تسألِ الأطْلال والمتَرَبَّعا ببَطْنِ حُلَيّاتٍ دَوارَسَ بَلْقَعا

فلما بلغ إلى قوله :

فلما تواقفنا وسلَّمتُ أشرقَتْ وجوهٌ زَهَاهَا الحُسْنُ أن تَتَقَنَّعا

قال : فصاح جميل واستخذى ، وقال : ألا إنّ النسيب أُخذ من هذا وما أنشده حرفاً »(12) .

والحقيقة أن الدّارس لقصيدة جميل التي منها هذا البيت في ديوانه ليجد الفرق كبيراً بين معاني القصيدتين ، فالقصيدتان من اثنين وعشرين بيتاً ، ومطلع قصيدة جميل(13) :

لقد فَرِحَ الوَاشُونَ أنْ صَرَمَتْ حَبْلي بُثَيْنَةُ أو أبدَتْ لنا جَانب البُخْلِ
يَقولون مهلاً ياجَميلُ وإنَّني لأقسِمُ مالي عن بُثَيْنَة من مَهْلِ
أحِلْماً فقبل اليوم كان أوانُهُ أم اخشى فقبل اليوم أُوعِدْتُ بالقَتْلِ

وفي آخرها يقول :

أفِقْ أيُّها القلبُ اللَّجُوجُ عن الجَهْلِ وَدَعْ عنك جُمْلاً لاسَبِيْلَ إلى جُمْلِ

وأغلب معاني هذه القصيدة تدور حول معنى واحد لايغادره جميل ، رغم لغة الحوار الموجودة في هذه الأبيات ، وهي قريبة من شعر عمر ، واللافت هذا التّداخل في شعر الرّجلين في ديوانيهما .

أما قصيدة عمر التي قدّمها جميل على شعره ، فهي تحكي قصة لقاء بينه وبين هند المريّة وأترابها(14) :

ألم تسألِ الأطلال والمتربَّعا ببطْنِ حُلَيَّاتٍ دوارسَ بَلْقَعا
إلى الشَّرْي من وادي المُغَمَّسِ بَدَّلَتْ معالِمُهُ وَبْلاً ونَكْبَاءَ زَعْزَعا

ومنها :

فقال : تعال انظر فقلت : وكيف بي ؟ أخاف مقاماً أن يشيعَ فيشْنُعا
فقال: اكْتَفِلْ ثم التَثْمْ فائتِ باغِياً فَسَلِّمْ ولا تُكْثِرْ بأن تَتَوَرَّعا

وفي آخرها يقول :

وقُلْنَ : كريمٌ نَالَ وَصْلَ كرَائمٍ فَحُقَّ لَهُ في اليومِ أنْ يَتَمَتَّعا

---

(12) الأغاني : ج8/ 2889 .

(13) ديوان جميل : 175 .

(14) ديوان عمر : ج22/2 .

ويبدو أنّ عمر قد أنشد القصيدة كاملة أمام جميل ، أو أن جميلاً كان يحفظها ، ليكون مثل هذا الحكم ، فالقصيدة ، ومنها هذا البيت متميّزة في النّسيب والغزل ، وخاصّة أنّها قامت على عنصر يميّز شعر عمر ، وهو الحوار الذي تكرّر كثيراً في الأبيات .
وثمة حكم آخر لجميل تردّد كثيراً في كتب الأدب ، ويتناول هذا الحكم قصيدة عمر اللامية التي سبق ونوهّنا إلى تأثّره فيها بامرئ القيس « وحدّث الزّبير بن بكّار عن أبي الحارث مولى هشام بن المغيرة قال : شهدت عمر بن أبي ربيعة وجميل بن عبد الله بن معمر وقد اجتمعا بالأبطح ، فأنشد جميل قصيدته التي يقول فيها :

فلو تَرَكَتْ عقلي معي ماطلبتُها ... ولكنْ طَلاَبيها لما فَاتَ من عَقْلي
خَليليَّ فيما عشتما هَلْ رأَيتُما ... قتيلاً بكى من حبِّ قاتله قبلي

قال : فأنشده عمر بن أبي ربيعة قوله :

جَرَى ناصحٌ بالودِّ بيني وبينها ... فقرّبني يومَ الحِصاب إلى قَتْلي
فلما تواقفْنا عَرَفْتُ الذي بها ... كمِثْلِ الذي بي حَذْوَكَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ

فانتهى إلى قوله :

فسلَّمْتُ واستأْنَسْتُ خيفة أن يَرى ... عدوٌّ مكاني أو يَرَىْ كاشحٌ فعلي
فقالَتْ وأرختْ جانب السِّتْرِ إنّما ... معي فتحدّث غير ذي رَقَبَةٍ أهلي
فقلْتُ لها مالي بهم من تَرَقُّبٍ ... ولكنّ سرّي ليس يحملُهُ مثلي

فقال جميل : هيهات ، يا أبا الخطاب ، لا أقول مثل هذا أبداً ، ماخاطب النّساء مخاطبتك أحد ثم قام مشمّراً »(15) .
ولا يختلف رأي جميل في شعر عمر في هذا الخبر عن الخبر السّابق ، إلاّ في تقديم عمر في فنّ مخاطبة النّساء ، حّتى إنّه فضّله على نفسه في هذا ، وهذا الحكم أيضاً لا يخرج عن مألوف أحكام النّقاد السّابقين ، فهو نقد ذاتيّ سريع التأثّر ، من استجادة معنى لبيت أو قصيدة ، وتفضيلها لهذا المعنى على كل ما قيل أو يمكن أن يقال ومع هذا فقد كان جميل معجباً بقصيدة عمر هذه ، وخاصّة أنّها تردّدت في أكثر أحكامه النّقديّة(16) على شعر عمر وهذه القصيدة من اثنين وعشرين بيتاً وفي آخرها يقول عمر :

وتَفْتَرُّ عن كالأُقْحوانِ برَوْضَةٍ ... جَلَتْهُ الصَّبا والمُسْتَهِلُّ من الوَبْلِ
أهيمُ بها في كُلِّ مُمْسى ومُصْبِحٍ ... وأُكْثِرُ دعواها إذا خَدِرَتْ رِجْلي

ولكثير عزّة الشاعر المعاصر لعمر بن أبي ربيعة رأي مخالف لهؤلاء جميعاً في شعر عمر ، ولابدّ أن نقف عند خبره الطويل لنستشفّ من خلال رأي هذا الشاعر الناقد الذي يختلف عن بقية النّقاد الشّعراء جملة من الآراء النّقديّة ، ليس لشعر عمر فحسب ، وإنّما لبعض الشّعراء الآخرين .

---

(15) وفيات الأعيان : ج481/1 ، وأبيات عمر في ديوانه : ج161/2 .
(16) الأغاني : ج115/1 ، و ج2886/8 .

جاء في الخزانة : « روى صاحب الأغاني بسنده أنّ عمر بن أبي ربيعة المخزوميّ قدم المدينة لأمرٍ فأقام شهراً ثم خرج إلى مكّة ، وخرج معه الأحوص معتمراً ، قال السّائب راوية كثيّر : فلمّا مرّا بالرّوحاء استَتْلَيَانِي فخرجت أتلوهما حتّى لحقتهما بالعَرْج فخرجنا جميعاً حتّى وَرَدْنا ودّان فحبسهما نصيب وذبح لهما وأكرمهما ، وخرجنا وخرج معنا نصيب فلمّا جئنا إلى منزل كثيّر فقيل لنا : قد هبط قديداً فجئنا قديداً فقيل لنا . إنّه في خيمة من خيامها ، فقال لي ابن أبي ربيعة : اذهب فادعه لي ، فقال نصيب : هو أحمق أشدّ كِبراً من أن يأتيك فقال لي عمر : اذهب كما أقول فجئته فهشّ لي وقال : اذكر غائباً تَرَه ، لقد جئت وأنا أذكرك فأبلغته رسالة عمر ، فحدّد لي نظره ثم قال : أما كان عندك من المعرفة بي ماكان يردعُك عن إتياني بمثل هذا ؟ فقلت : بلى ، ولكن ستَرْتُ عليك فأبى الله إلاّ أن يهتك سترك . قال : إنّك والله يا ابن ذكوان ما أنت من شكلي ، قل لابن أبي ربيعة إن كنت قرشيّاً فإنّني قرشيّ فقلت : ألا تترك هذا التلصُّق ؟ فقال : والله لأنا أثبت فيهم منك في دَوْس ثمّ قال : وقل له إن كنت شاعراً فأنا أشعر منك . فقلت : هذا إذا كان الحكم إليك قال : وإلى من هو ؟ ومن أولى به منّي ؟ فرجعت إلى القوم فأخبرتهم فضحكوا ثم نهضوا معي إليه فدخلنا عليه في خيمة فوجدناه جالساً على جلد كبش فوالله ماأوسع للقرشيّ فتحدّثوا مليّاً ثم أفضوا في ذكر الشّعر فأقبل على عمر فقال له : أنت تبعت امرأة فتنسب بها ثم تدعو فتنسب بنفسك أخبرني عن قولك :

قالت : تصدّي له ليعرفَنَا ثمّ اغْمُزِيهِ يا أُخْتُ في خَفَرِ
قالت لها : قد غمزتُه فأبى ثمّ اسبطرَّتْ تشْتَدّ في أثري
وقولُها والدّموعُ تسبقها لنفسدَنَّ الطّواف في عمرِ

أتراك لو وصفت بهذا الشعر هرّة أهلِك ألم تكن قد قبّحت وأسأت لها وقلت الهُجْرُ ! إنّما توصفُ الحرّة بالحياء والإباء والبخل والامتناع كما قال هذا وأشار للأحوص :

أدُورُ ولولا أن أرى أمّ جَعْفَرٍ بأبياتِكم مادرْتُ حيث أدورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكنَّ ذا الهوى إذا لم يُزَرْ لابُدَّ أنْ سيزورُ »(17)

ويتابع الخبر نقداً من كثيّر لبعض معاني الأحوص ونصيب ، ولاينسى عمر والشعراء الآخرون في نهاية هذا الخبر نقد شعر كثيّر في كثير من المواضع .

إنّ الخبر في الخزانة ، على طوله ، يكشف لنا في باب الأحكام النّقديّة الكثير ، فكثيّر الشاعر النّاقد يتناول معنىً في شعر عمر تردّد كثيراً ، وهو نسيبه بنفسه ، وقد رأى كثيّر في هذا عيباً في المعنى أي أنّ النّقد تناول المعنى ، وهو صورة من صور النَّقد المعلّل ، فلا يكتفي النّاقد هنا بنقد هذا المعنى بل يردف ذلك بتعليل هذا النّقد ، فالمرأة توصف بالحياء والإباء والبخل والامتناع ، وعن هذا خرج عمر في رأي كثيّر .

والحقيقة أنّ هذا المعنى ، تناوله النّقاد على مختلف طبقاتهم ، معيبين على شاعرنا تغزّله بنفسه ، على أنّ هذا تردّد كثيراً في شعر عمر ، كمثل قوله من قصيدة أخرى(18) :

يوم قالَتْ لِتِرْبِها : سائِليهِ أيُرِيدُ الرَّواحَ أم هو غَادي

(17) خزانة الأدب : ج386/8 ، والخبر في الأغاني : ج4280/12 ، وفي الكامل للمبرّد : ج686/2 ، وأبيات عمر من قصيدة في ديوانه : ج311/1 .
(18) ديوان عمر : ج186/1 .

ونُصيب من الشّعراء أيضاً الذين وقفوا عند شعر عمر ، واللافت حقّاً أنّ آراءه النّقديّة تخالف ما ذهب إليه جميل الشّاعر في الأخبار المتقدّمة ، ففي الأغاني « أخبرني الحسن بن عليّ الخفّاف قال : حدّثنا الحارث بن محمّد عن المدائني عن عَوَانه قال : حدّثني رجل من أهل الكوفة قال : قدم نصيب الكوفة فأرسلني أبي إليه وكان له صديقاً فقال : أقرئه مني السّلام وقُلْ له : إن رأيت أن تهدي لنا شيئاً ممّا قلت ! فأتيته في يوم جمعة وهو يصلّي فلما فرغ أقرأته السّلام وقلت له ، فقال : قد علم أبوك أنّي لا أنشد في يوم الجمعة ولكن تلقاني في غيره فأبلغ ماتحبّ ، فلمّا خرجت وانتهيت إلى الباب ردُدت إليه فقال : أتروي شيئاً من الشعر ؟ قلت : نعم قال : فأنشدني فأنشدته قول جميل :

إنّي لأَحْفَظُ غَيبكم ويَسُرُّني لو تعلمين بصالحٍ أنْ تُذْكَري

فقال نصيب : أمسك ! أمسك ! لله درّه ما قال أحد إلا دون ما قال ولقد نحت للنّاس مثالاً يحتذون عليه ، ثم قال : أمّا أصدقنا في شعره فجميل ، وأمّا أوصفنا لربّات الحجال فكثيّر، وأمّا أكذبنا فعمر بن أبي ربيعة ، وأمّا أنا فأقول ما أعرف »[19] .

وفي خبر آخر : « حدّثتني عمّتي عوضة بنت النّصيب أنّ أباها جلس مع إبراهيم ابن عبد الله بن مطيع بودّان فقال له إبراهيم : يا أبا محجن ألا تخبرنا عنك وعن أصحابك ؟ قال : بلى جميل أصدقنا شعراً وكثيّر أبكانا على الظّعن وابن أبي ربيعة أكذبنا وأنا أقول ما أعرف »[20] .

في هذين الخبرين المتشابهين رأي نقديّ يمسّ الأغراض الشّعريّة ، ممّا يوحي بتقدّم النّقد عند هؤلاء الشّعراء ، وفيهما ما يدلّ أيضاً على أنّ حركة نقديّة دارت حول شعراء الغزل وحول عمر بالذّات في العصر الأمويّ ، وفيه خلط بين تيّارين شعريين وإن لم يكن حكم نصيب دقيقاً ، فمن المسلَّم به أنّ عمر لم يكن صادقاً في شعره ، لكنّه لم يكن كاذباً في حبّه ، وهو فتح باب النَّسيب والغزل في الشعر برأي جميل نفسه ، الذي وصفه نصيب بأنّه أصدقهم .

والمتتبِّع لأخبار هذا الشاعر النّقديّة ، يرى أنّه وصف عمر في أكثر من مرّة وصفاً يقارب رأي جميل في شعر عمر ، ونصيب هذا هو الذي يقول : « لعمر بن أبي بيعة أوصفنا لربّات الحجال » .

فعمر بن أبي ربيعة في رأي نصيب ، هو من أحسن شعراء الغزل وصفاً للمصونات المخدرات من النّساء ، وقد علّق الدّكتور طه حسين على هذا الرّأي ، فقال : « ولم يخطئ نصيب حين قال : عمر بن أبي ربيعة أوصفنا لربّات الحجال ، فلم يعرف العصر الأمويّ كلّه شاعراً وصف المرأة جملة وتفصيلاً بمثل ما وصفها عمر ابن أبي ربيعة جودةً وكثرةً ودقّةً بنوع خاصّ »[21] .

لقد كان شعر عمر في الحجاز وغيرها عرضة لنقد هذه الفئة من النُّقّاد ، وكان هذا الشعر مادّة خصبة لهؤلاء الّذين رأوا في هذا الغزل شيئاً جديداً ، لمع نجمه على يد مبتدعه عمر .

وحفظ الشّعراء من بعد لعمر هذه المكانة التي تبوَّأها ، فمروان بن أبي حفصة يقدّمه على الشعراء جميعهم في هذا الباب فهو يقول في إحدى قصائده[22] :

إنَّ الغَواني طالَمَا قتَّلْنَنا بعيونهنَّ ولا يَدينَ قتيلا
من كلّ أنسةٍ كأنّ حجَالَها ضُمِّنَّ أحْوَرَ في الكِنَاسِ كحيلا
أَرْدَيْنَ عُرْوَةَ والمرقِّشَ قبلَه كُلٌّ أصِيبَ وما أطَاقَ ذُهُولا
ولقد تركْنَ أبا ذُؤَيبٍ هائِماً ولقد تَبَلْنَ كُثيِّراً وجَمِيلا

(19) الأغاني : ج2/815 ، وبيت جميل من مقطوعة في ديوانه : 108 .

(20) الموشّح : 321 .

(21) حديث الأربعاء لطه حسين : ج1/308 .

(22) الكامل : ج1/862 ، والأبيات في ديوانه : 77 ، جمع وتحقيق د. حسين عطوان دار المعارف بمصر .

وتركْنَ لابن أبي ربيعة مَنْطِقاً فيهنّ أصبح سائراً محمولا

وكان أبو تمّام الشاعر العبّاسيّ معجباً بشعر عمر ، وهذا الغزل الجديد ، وقد قدَّمه على شعراء عصره في هذا الفنّ واختار له أربعة أبيات من الشعر في حماسته ، وعلّق عليها قائلاً :

« وعمر هذا شاعر غزل مفتون بالنّساء وصّاف لهنّ محبّب إليهنّ لا يمدح سواهنّ ، وكان يشبّب بنساء الأمراء وسيدات النّساء ، رقيق الشعر حسن الدِّيباجة ، جيّد الأسلوب ، سهل التَّراكيب ، غوَّاصاً على معانٍ كثيرة ، وكانت العرب تقرّ لقريش بالتَّقدم في كلِّ شيء عليها إلاّ في الشّعر حتّى كان عمر بن أبي ربيعة فأقرَّتْ لها الشُّعراء بالشِّعر أيضاً »(23) .

المراجع :

.....

(23) ديوان الحماسة : 110 .

1- الأغاني/ لأبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين بن محمد القرشي (356هـ) إشراف وتحقيق : إبراهيم الأبياري – طبعة خاصة تصدرها دار الشعب بالقاهرة 1969هـ .
2- أمثال العرب/ المفضل الضبي (168هـ) القسطنطينية – مطبعة الجوائب 1300هـ .
3- حديث الأربعاء/ د . طه حسين مصر : مجموعة أحاديث طبع دار المعارف 1925م .
4- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب/ للبغدادي عبد القادر بن عمر (1093هـ) تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون _ القاهرة : نشر مكتبة الخانجي 1979م .
5- ديوان الحماسة/ لأبي تمام ، مختصر من شرح العلامة التبريزي ، علّق عليه وراجعه محمد عبد المنعم خفاجي 1955م .
6- ديوان الفرزدق/ جمع وتعليق : عبد الله الصاوي _ بيروت : مطبعة الصاوي 1966م .
7- ديوان جرير/ محمد إسماعيل عبد الله الصاوي بيروت : دار الأندلس للطباعة والنشر 1971م .
8- ديوان جميل بثينة/ جمع وتحقيق د . حسين نصار _ط2_ مصر : مكتبة مصر 1967م .
9- ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي/ تقديم وشرح قدري مايو _ جزأين _ بيروت : عالم الكتب 1997م .
10- ديوان مروان بن حفصة/ جمع وتحقيق ؛ د . حسين عطوان دار المعارف بمصر .
11- العمدة في محاسن الشعر وآدابه/ للإمام أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (456هـ) تحقيق : محمد قرقزان بيروت : دار المعرفة 1988م .
12- الكامل في اللغة والأدب / للعلامة أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرّد النحوي (285هـ) بيروت : نشر مؤسسة المعارف .
13- الموشح مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر/ للمرزباني أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (384هـ) تحقيق علي البجاوي مصر : دار نهضة مصر 1965م .
14- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (681هـ) : حققه الدكتور إحسان عباس _بيروت : دار صادر 1968م .